الرسالة

(أعمال الرسل ١٩: ١–٨)

في تلك الأيامِ حدَثَ إذ كانَ أبُلُّوسُ في كورِنثُسَ أنَّ بولسَ اجتازَ في النواحي العاليةِ وجاءَ إلى أفسُسَ. فوجدَ بعضاً من التلاميذ* فقال لهم هل أخذْتُم الروحَ القدُسَ لمَّا آمنتُم. فقالوا لهُ لا بل ما سمعنا بأنَّهُ يوجدُ روحٌ قدُسٌ* قالَ فبأيَّةِ معموديَّةٍ اعتَمدتُم. فقالوا بمعموديَّة يوحنَّا* فقال بولسُ إنَّ يوحنَّا عمَّدَ بمعموديَّةِ التوبةِ قائلًا للشعبِ أن يؤمنوا بالذي يأتي بعدَهُ أي بالمسيحِ يسوع* فلمَّا سمِعوا اعتَمدوا باسمِ الربِّ يسوع* ووضعَ بولسُ يديهِ عليهم فحلَّ الروحُ القدسُ عليهم. فطفِقوا يتكلّمون بلغاتٍ ويتنبَّأون* وكانوا كلُّهم نحو اثني عشرَ رجلاً* ثمَّ دخل المجمعَ. وكان يُجاهِرُ

صوت صارخ في البريّة

تحتفل كنيستنا المقدّسة في اليوم التالي لكلّ عيد كبير خاصّ بالسيّد أو بوالدة الإله بتذكارِ جامعٍ للقدّيس الذي كان وسيطًا لهذا العيد. هكذا، نحتفل في السابع من كانون الثاني بعيدِ جامع للقدّيس يوحنا المعمدان الذي سبق فأعدّ طريق الربّ، معمّدًا إيّاه في نهر الأردنّ، وعاين الروح الإلهيّ منحدرًا عليه بشكل حمامة. نعيّد للسابق كونه «أعظم مولودي النساء»، و«كبير الأنبياء»، و«صوت الكلمة»، و«كاروز النعمة»، و«مشعل النور الإلهيّ»، و«فجر المسيح شمس العدل»، و«الملاك الأرضيّ»، و«الإنسان السماويّ» والرابط بين العهدين القديم والجديد.

يسمّى يوحنّا النبيّ المعمدان بـ«السابق» كونه هيّأ طريق الربّ. كان ناسكًا ونبيًّا عظيمًا واستحقّ تعميد المخلّص، فأضحى أكثر قدّيسي الكنيسة المسيحيّة إكرامًا في أرجاء العالم.

العدد ١ / ٢٠١٨

الأحد ٧ كانون الثاني

تذكار جامع

للقديس يوحنا المعمدان

اللحن السادس

إنجيل السَحَر التاسع

جُلّ ما نعرفه عن سيرة المعمدان وكرازته يأتينا من الأناجيل الأربعة. يفصّل إنجيل لوقا الكلام في الظروف العجائبيّة المرافقة لمولد المعمدان وسيرته واستشهاده، ويخبرنا إنجيل متّى عن كرازته ورسالته، ويركّز إنجيل مرقس على خبر استشهاده، أما الإنجيليّ يوحنّا فيخبرنا عن شهادة السابق بعد معموديّة المخلّص. نجد أيضًا إشارات له في أعمال الرسل (١٣: ٢٤؛ ١٩: ١–٦). يمكننا إضافة شهادة المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس عن شعبيّة المعمدان وعن تفاصيل أُخرى متعلّقة به.

يُعتبر يوحنّا السابق شفيعًا لكلّ العرّابين والعرّابات. هو «ملاك الصحراء» الذي تصوّره الأيقونات بجناحَيْن كبيرَيْن يظلّلان كلّ عرّاب يصير بدوره ملاكًا حارسًا وشاهدًا أمينًا للطفل المعمود.

كان والده زخريّا كاهنًا من «فرقة أبيّا» وأمّه أليصابات تحدّرت من نسل هارون (لو ١: ٥)، فكان يحمل سلطان التعميد باسم الله. وُلد قَبل الربّ يسوع بستّة أشهر كما أخبر عنه الكتاب (مت ٣: ٣؛ إش ٤٠: ٣؛ ملا ٣:

١) وكما أنبأ عنه الملاك. فقد الوالد زخريّا قدرته على الكلام حين شكّك بوعد الربّ بولادة هذا الابن، ولم يستعد القدرة على النطق إلّا عند ختانة يوحنّا (لو ١: ٦٤).

قضى يوحنا سنيه المبكّرة في جبال اليهوديّة الممتدّة بين أورشليم والبحر الميت (مت ٣: ١–١٢). عاش بزهد وبساطة مرتديًا لباس الشَّعر وآكلاً «الجراد والعسل البرّيّ» (مت ٣: ٤). لمّا أتت الساعة بدأ كرازته، وكانت الحشود تتوافد للإصغاء إلى وعظه عن ضرورة التوبة والتخلّص من كلّ أنانيّة. فضح رياء الصدّوقيّين والفرّيسيّين «جيل الأفاعي» (لو ٣: ٨)، كما حذّر العشّارين والجنود من استغلال الشعب الفقير. كان آلاف الناس يعتمدون على يده في نهر الأردنّ معموديّة التوبة.

حضر المسيح من الجليل إلى الأردنّ ليعتمد من يوحنّا لكي «يتمّم مشيئة الله» (مت ٣: ١٥) خاتماً بمعموديّته كرازة النبيّ السابق والعهد القديم، كما تؤكّد كلمات يوحنّا: «ينبغي أنّ ذلك يزيد وأنا أنقص» (يو ٣: ٣٠). أشار يوحنّا إلى الربّ يسوع «الطريق والحقّ والحياة» (يو ١٤: ٦) قائلًا: «هوذا حمل الله الرافع خطيئة العالم» (يو ١: ٢٩). أمّا مسيرته على الأرض فخُتمت بعد ستّة أشهر تقريبًا، حين سجنه هيرودس في قلعة تقع على مسافة تسعة أميال شرق البحر الميت، حيث قُطع رأسه بإيعاز من هيروديّا وبطلب من ابنتها سالومة. لقد قصد تلاميذُه، الذين دفنوا جسده، الربَّ يسوع وأخبروه بكلّ ما حدث، فشهد الربُّ بأنّ يوحنا كان «المصباح الموقَد المنير» (يو ٥: ٣٥) الذي أنار طريق السالكين في العهد القديم إلى المسيح وإلى عهده الجديد.

كذلك تشهد الكنيسة للنعمة الظاهرة في استشهاده إذ تعتبره سابقَ المسيح حتى في النزول إلى الجحيم للكرازة بنور المسيح الآتي، حيث حقّق نبوءة زخريّا والده: «أنتَ أيّها الصبيّ نبيَّ العليّ تُدعى، لأنّكَ تَتقدَّم أمامَ وجه الرّبّ لِتُعِدّ طُرُقَه. لتُعطِيَ شعبه معرفةَ الخلاص بمغفرة خطاياهم، بأحشاء رحمة إلهنا الّتي بها افتقَدَنا المُشرقُ من العلاء. ليضيء على الجالسين في الظّلمة وظلال الموت، لكي يهدي أقدامنا في طريق السّلام» (لو ١: ٧٦–٧٩).

يوحنّا، في الكنيسة، هو نموذج العفّة، والبتوليّة، وسيرة التوبة والنقاوة، والتغلّب على الأهواء، والنسك، والصلاة. هو قدوة الرهبان الأولى وركن المقيمين في القفر في سيرة التوحّد. لا يزال المعمدان في حياتنا كلّ يوم يهيّئ طريق الربّ. نحن، باتّباعنا كرازته بالتوبة، نتهيّأ لعيش حقيقة سرّ المعموديّة على امتداد عمرنا، وباقتدائنا بفكره المستنير وبزهده في الأمور الباطلة، نحفظ شعلة النعمة متّقدةً في نفوسنا حتى يحضر المسيح إلينا ويملأ قلوبنا وحياتنا بمجد أبيه السرمديّ.

نعمة الله المخلّصة

نعيّد في عيد الظهور الإلهيّ لمعموديّة الربّ يسوع، التي ظهر الله فيها أكمل ظهور كثالوث: الإبن يعتمد، والروح يشهد، والآب يُعلن سروره. لقد ظهرت نعمةُ الله ومحبّته للبشر في هذا الحدث أكمل ظهور.

يسمّي الرسول بولس نعمةَ الله في حدث المعمودية بـ«المخلِّصة مدةَ ثلاثةِ أشهرٍ يفاوِضُهم ويقنِعُهم بما يختَصُّ بملكوتِ الله.

الإنجيل

(يوحنا ١: ٢٩–٣٤)

في ذلك الزمان رأى يوحنا يسوعَ مُقبلاً إليهِ فقال هوذا حملُ الله الذي يرفعُ خطيئةَ العالم* هذا هو الذي قلتُ عنهُ إنَّهُ يأتي بعدي رجلٌ قد صار قبلي لأنَّهُ مُتقَدِّمي* وأنا لم أكُنْ أعرفُهُ. لكن لكي يظهرَ لإسرائيل، لذلك جئتُ أنا أعمّدُ بالماءِ* وشهد يوحنا قائلاً إنّي رأيت الروحَ مثلَ حمامةٍ قد نزَلَ من السماءِ واستقرَّ عليهِ* وأنا لم أكُنْ أعرِفُهُ لكنَّ الذي أرسلني لأُعمِّدَ بالماءِ هو قال لي إنَّ الذي ترى الروحَ ينزِلُ ويستقرُّ عليهِ هو الذي يُعمِّدُ بالروح القدس* وأنا قد عاينتُ وشهِدتُ أنَّ هذا هو ابنُ الله.

تأمل

قدّس يسوع العماد عندما عُمّد هو نفسه. إن كان ابن الله عُمّد، لا لكي

يحصل على مغفرة خطاياه (لأنه كان بلا خطيئة)، ولكنه عُمّد، هو المنزّه عن الخطيئة، لكي يمنح المعمَّدين النعمة الإلهية والكرامة. «ولما كان الأنبياء شركاء في الدم والجسد» (عب ٢: ١٤)، شاركهم هو فيهما أيضاً، لكيما إذا شاركناه في حضوره في الجسد، نشاركه في نعمته الإلهية. وهكذا عُمّد يسوع حتى نشترك بواسطته في هذا العماد، ونحصل بذلك على الكرامة والخلاص. كان التنين في المياه ـ على ما جاء في سفر أيوب (٤٠: ٢٣) ـ وكان إذا طغت عليه المياه لا يحفل، حتى لو اندفق الأردن في فمه. ولما كان من الضروري أن يُحطّم رأس التنين، نزل السيّد في المياه وربط القويّ (مت ١٢: ٢٩)، «لكي يولينا سلطاناً ندوس به الحيّات والعقارب» (لو ١٠: ١٩). إنه ليس وحشاً صغيراً، فمنظره كافٍ لإثارة الرعب، ولا يستطيع أي قارب صيد أن يقاوم ضربة واحدة من ذيله، وأمامه يعدو الهول، وهو يسحق كل الذين لجميع الناس»، لكن، مع ذلك، ليس الجميعُ يخلُصون! النعمة مخلِّصة للجميع من حيث دورها ورغبة الله حينٍ يُظهرها. لكنّ نعمة الله المخلِّصة لا تخلِّصنا رغمًا عنّا من دون رغبتنا الحرّة.

لكي ننال نعمة الخلاص يجب أن نشعر بحاجتنا إليها. الشعور بالحاجة، هو الشعور بالفقر الروحيّ. إنّه يوازي الجوع الجسديّ الذي يعرفه الفقير. لماذا جوع الفقير؟ لأنّه أقسى من الجوع الذي يشعر به أيّ جائع قبل حلول أوان الأكل. متى جعنا نعرف أنّ هناك طعامًا معدًّا لنا نستطيع أن نتناول منه الكميّة التي تُسكت جوعنا. أمّا الفقير الجائع فيشعر، إضافة إلى جوعه، بالقلق الذي يتسبّب به عدم قدرته على تأمين طعام.

توازي الحاجة إلى النعمة أيضًا حاجة الفقير الجائع إلى الطعام وحاجة الجسد العاري إلى اللباس. معنى الحاجة هنا يأخذ طابعًا دراماتيكيًّا، لأنّ استمرارها يتسبّب للإنسان بأزمة حقيقيّة. يبحث الإنسان عادةً عمّا يُبعِد عنه الأزمات، لذا يصبح سدّ حاجاته أولويّة مطلقة. الله، الذي يعرف حاجتنا إلى النعمة، تنازل لفرط محبّته لكي يعتمد في الأردنّ كعبد حتّى تكون النعمة متوافرة ووافرة لمن يريد. خفّف عنّا القلق الذي قد ينتجه بحثنا عنها بلا جدوى.

لا يكفي شعورنا بالحاجة إلى النعمة وحده لننالها. علينا أن نعبّر لله عن رغبتنا بنيلها والمحافظة عليها. كيف نعبّر لله عن رغبتنا وحاجتنا للحصول على النعمة؟ إليكم هذه الصورة: يُخبركم إنسانٌ تحبّونه بأنّه سيأتي لزيارتكم. يحدّد لكم توقيت حضوره. تعدّون المنزل وما ستقدّمونه من ضيافة لتكريمه. لكنّكم تتوقّعون من هذا الضيف الحبيب أن يخرج من بيته ويسلك الدرب المؤدّية إلى منزلكم ويقرع الباب لتفتحوا له. هكذا الله، يُعدّ لنا كلّ شيء ليستقبلنا، لكن ما لم نخرج إليه ونسلك الطريق المؤدّية إليه ونقرع بابه لن يستضيفنا ولن نتذوّق ما أعدّه لنا من طيّبات. بمعنى آخر، لا يكفي الشوق وحده. الشعور بالحاجة إلى الله لا يكفي، يجب أن يتحوّل هذا الشوق إلى قوّة مُحرِّكة ودافعة لكي يحصل اللّقاء. ما لم نتحرك يكون إيماننا كسيحًا ودعاؤنا مجرّد كلمات لا تُنتج في نفوسنا تحوّلاً.

كيف نجعل من شوقنا قوّةً محرِّكة؟ عندما نفقد أمرًا، نركّز اهتمامنا عليه، ونحصر وعينا للبحث عنه. نكرّر تمرير صورته في ذهننا لكي يبقى، وهو غائب عنّا، في أولى درجات اهتماماتنا. نترك كلّ شيء ونبحث عنه. نعطيه وقتًا ثمينًا ونبذل في سبيله جهدًا. هكذا يكون البحث عن النعمة. يجب أن نضعها في طليعة أولويّاتنا و«نطرح عنّا كلّ اهتمام دنيويّ» (كما نقول في الشيروبيكون قبل الشروع بالكلام الجوهريّ والاستحالة في القداس الإلهيّ) لنستقبلها كما يليق. علينا أن نُعدّ أنفسنا لاستقبال النعمة.

المطلوب منّا هو الطاقة المُحرِّكة والمُحرِّرة. لكنّ الإنسان لا يملك طاقة ذاتيّة ليتحرّك ويتحرّر. طاقته من الله والله يضع هذه الطاقة بتصرّفه. إلّا أنّ الإنسان حرّ في قبوله هذه الطاقة وكيفيّة استعماله لها. تلك هي مسؤوليّته ودينونته لأنّ قبولها أو رفضها وحُسن

استعمالها أو عدمه ينبع من إرادته وقراره الحرّ. طاقتنا هي طاقة الحياة فينا، هي حياتنا، بتعبير آخر هي أيّامنا ولياليا. هل سألنا أنفسنا كيف نتصرّف بطاقتنا وكيف نصرفها؟ كيف نعيش أيّامنا؟ هل نقول كلّ صباح: ها وقتٌ يُعمل فيه للربّ (كما يقول الشماس قبل بدء القداس الإلهيّ)؟ هل عملنا هو لتحقيق ذواتنا إجتماعيًّا وماديًّا وحتى فكريًّا؟ هل أعمالنا هي لمجد الله، نقدّمها له قرابينَ؟ ليس خطأ أن نحقّق إنجازات فكريّة واجتماعيّة واقتصاديّة. الخطأ هو تحقيق ذواتنا فقط من خلالها. يحقّق المؤمن ذاته من خلال نموّه على ملء قامة المسيح بقوّة وفعل وحلول الروح القدس فيه. عندئذٍ يكون المجد لله لا لنفسه. هذه تبقى في عريها والله يسربلها بالنعمة.

ما هي ميّزات النعمة؟

نعرف أنّ الطبيعة مكوّنة من أربعة عناصر: الماء والهواء والتراب والنار. الله، بتجسّده في تاريخنا البشريّ من البتول، قدّس الطبيعة وأعطاها حياة جديدة. لم يأخذ الله جسدًا ترابيًّا فقط ليقدّس الجسد، بل لبس عناصر الطبيعة ليعطيها حياة جديدة. هذه النعمة هي ثمرة الظهور المثلّث لله الآب والابن والروح القدس في نهر الأردنّ بالمعموديّة وبدء عمل الله الخلاصيّ. تنسكب نعمة الله على الإنسان والطبيعة كخليقة مقدّسة. أمّا الطبيعة فلا تتفاعل مع النعمة بإرادتها لأن لا حريّة لها ولا إرادة ولا قرار، بل الله أعطى الإنسان، مع النعمة، حرّيّة اختياره لها ولطريقة تعاطيه معها.

عمليًّا، كيف نتعاطى مع النعمة كمسيحيّين؟

إذا بدأنا بالإفخارستيّا. يعطينا الله خلالها جسده ودمه الكريمين لنتناولهما ونخلص. هذه نعمة لا قيمة تعلو قيمتها، فهل نتقدّم إلى المناولة بعد استعداد جدّيّ (صوم، صلاة، توبة، إعتراف...)؟ أم هي بالنسبة إلينا عمل ميكانيكيّ خارجيّ؟ بعد المناولة، هل نشعر بعظَمَة الحدث وأهميّته المركزيّة في حياتنا كيانيًّا ووجوديًّا، أم نخرج توًّا من الكنيسة مسرعين لمتابعة حياتنا كأنّ شيئًا لم يكن؟ كيف أتعاطى مع حضور الربّ في داخلي؟ هل أهمّشه وأنساه؟ أم أتصرّف في المجتمع على أنّه مقيم فيّ ومعي؟

مثلٌ آخر هو الماء المقدّس الذي نتناوله في الظهور الإلهيّ. هل نعتبره مسحوقًا سِحريًّا كمساحيق المشعوذين، أم نعمة للتقديس ومعموديّة لبيوتنا التي ستتحوّل عند تكريسها به أمكنة مقدّسة ومكرّسة للربّ؟

خلاصة القول، إنّ الله يغدق علينا وافر نِعَمِهِ، لكن علينا أن نستعدّ بجهد حثيث لقبولها بروحٍ عالية من المسؤوليّة وللتصرّف بها والمحافظة عليها كعبيد أمناء لسيّدهم، فتنزل المنزلة الأولى (لا بل الوحيدة) في حياتنا لأنّها خلاص نفوسنا وعلامة محبّة الله لنا وعظيم رحمته ومجده إلى منتهى الدهر.

للإطلاع على أخبار الأبرشية:
www.facebook.com/metbei

يقتربون منه (أي ٤١: ١٣). لقد أقبلت الحياة لتكمّم الموت، حتى نستطيع نحن المخلَّصين جميعاً أن نقول: «أين شوكتك يا موت وأين ظفرك يا جحيم؟» (١ كو ١٥: ٥٥). فبالعماد سُحقت شوكة الموت.

أنتم تنزلون في الماء بخطاياكم، ولكن دعوة النعمة التي تختم نفوسكم لا تتركّكم تحت سيطرة التنين المرعب. أنتم تنزلون أمواتاً بخطاياكم، وتصعدون أحياء في البّر (رو ٦: ٢؛ ١ بط ٢: ٢٤). فإذا أنتم اتحدتم في موت يشبه موته، فإنكم تكونون جديرين بقيامته (رو ٦: ٢). لأنه كما أنّ المسيح الذي أخذ على نفسه جميع خطايا العالم، قد مات لكيما هو يقيمكم في البّر بسحقه الخطيئة، كذلك أنتم، بنزولكم في الماء، تُدفَنون فيه بشكل ما، كما هو دُفن في الصخرة، حتى تنهضوا سالكين حياة جديدة (رو ٦: ٤).

القديس كيرلس الأورشليمي